الفصل الأول

ما هو التصوف ؟

● **أصل كلمة التصوف :**

اختلف الناس فى أصل كلمة « التصوف » •• فمن قائل بأنها قد اشتقت من « الصوف » •• بعد أن رأى الصوفيين يخالفون الناس ويلبسون الصوف بدلا من الثياب الفاخرة تقشفا وزهدا !!

ومن قائل بأن الكلمة اشتقت من « الصفاء » •• بمعنى أن قلب المريد يصفو ويتطهر باطنه وظاهره عن مخالفة ربه •

وقيل : بأنها مأخوذة من « الصفة » التى ينسب اليها فقراء الصحابة على عهد الرسول ﷺ •• وعرفوا فى التاريخ بأهل الصفة ••

وفى هذا يقول القشيرى : « هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة •• فيقال : رجل صوفى ، وللجماعة : صوفية •• ومن يتوصل الى ذلك يقال له : متصوف ، وللجماعة : المتصوفة •

وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق •• والأظهر فيه أنه كاللقب ••

فأما قول من قال : انه من الصوف •• وتصوف الرجل اذا لبس الصوف كما يقال : تقمص اذا لبس القميص •• فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف •

ومن قال : انهم منسوبون الى صفة مسجد رسول الله ﷺ ، فالنسبة الى الصفة لا تجىء على نحو الصوفى ••

ومن قال : انه من الصفاء •• فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة ••

وقول من قال : انه مشتق من الصف .. فكأنهم فى الصف الأول من حيث المحاضرة من الله تعالى .. فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة الى الصف ..

ثم ان هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج فى تعيينهم الى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق .

تكلم الناس فى التصوف ما معناه ؟ .. وفى الصوفى من هو ؟ .. فكل عبر بما وقع له .. واستقصاء جميعه يخرجنا عن المقصود من الايجاز »[1] .

وهكذا .. لم يبين لنا القشيرى — رحمه الله — أصل هذه الكلمة بعد أن استعرض جميع الأقوال فيها ..

● أما الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى — شيخ مشايخ الطرق الصوفية — فانه يلقى الضوء على أصل هذه الكلمة بعد أن يقرب الينا معناها ، فيقول تحت عنوان : « خواطر صوفية »[2] :

« حين ظهرت حركة التخصص فى العلوم فى العالم الاسلامى — حوالى القرن الثالث الهجرى — تخصص فريق من علماء المسلمين فى دراسة العقيدة من حيث تقريرها على وجه عقلى .. ومن حيث الدفاع عنها ضد الآراء المخالفة لها .. فعرف هؤلاء العلماء باسم علماء التوحيد ، أو الكلام .. أو علماء أصول الدين ..

وظهر نفر آخر من العلماء .. اختصوا بدراسة الأحكام العملية ، وكيفية استنباط هذه الأحكام من أدلتها ، وهى : القرآن والسنة والاجماع والقياس .. وعرف هؤلاء باسم الفقهاء .. وعرف عملهم باسم علم الفقه ..

---

(١) الرسالة القشيرية ، ط . مطبعة التقدم العلمية ، ١٣٤٦ هـ ، ص ١٢٦

(٢) انظر مجلة التصوف الاسلامى — العدد ٧٠ — ربيع الأول سنة ١٤٠٥ هـ (ديسمبر ١٩٨٤ م) ص ٥ — ٧

وفى نفس الوقت .. ظهر فى العالم الاسلامى علماء آثروا أن يخصصوا جهودهم لدراسة الأخلاق .. ولكن كانت هذه الدراسة من نوع خاص .. فلم تكن نظرية بحتة ، وانما اقترنت بالتجربة والذوق ..

وقالوا : ان الأخلاق هى روح الدين .. ولكى يكون الانسان مسلما صحيح الايمان صحيح العمل ، يتعين عليه أن يتوخى الأهداف الأخلاقية ، وأن يتحقق فى عبادته وسلوكه ، وفى أقواله وفى أحواله .. بما كان عليه المصطفى عليه الصلاة والسلام ..

ولهذا .. اتجهوا الى البحث العميق فى النفس الانسانية وقواها وأمراضها .. وكيفية علاج هذه الأمراض ، وكيفية السلوك الى الله بوجه عام .. مع الميل الى ما كان عليه السلف من تقلل وزهد فى كثير من مباهج الحياة التى يقبل عليها العاديون من الناس ..

وهؤلاء .. عرفوا — منذ القرن الثالث الهجرى — باسم الصوفية ، وعرف علمهم باسم علم التصوف ..

ودونوا علومهم فى ذلك الوقت .. فكتب المحاسبى (ت ٢٤٣ هـ) رسائل فى محاسبة النفس .. وكتب الجنيد (ت ٢٩٧ هـ) رسائل متعددة .. وكتب كثير غيرهم ، وكانت هذه الصورة الأولى لمؤلفات الصوفية الأوائل .. وكانوا جميعا علماء اشتهروا بعلوم الشريعة » ..

ثم يقول فضيلته بعد هذا التمهيد :

« ولكن .. قد يسأل سائل هنا : لماذا ظهرت هذه التسمية .. تسمية التصوف أو الصوفية ؟

والاجابة على هذا السؤال من الناحية العلمية هى الاجابة التى أجاب بها القشيرى فى الرسالة .. قال : لقد كان جيل المسلمين ممن صحبوا النبى ﷺ يجدون شرفا لا يدانيه شرف فى أن يسموا بالصحابة .. وكذلك جيل التابعين ، كانوا يرون شرفا لا يدانيه شرف فى أن يطلق عليهم هذا الاسم ..

ثم بانقضاء جيل الصحابة والتابعين .. عرف المقبلون على العبادة .. المترسمون خطى النبى ﷺ وصحابته بأسماء مختلفة ..

عرفوا تارة باسم الزهاد .. وتارة باسم البكائين — لأنهم كانوا من فرط ايمانهم يبكون بين الحين والآخر لخشيتهم وخوفهم من الله — .. وعرفوا تارة باسم النساك .. ثم عرفوا أخيرا باسم الصوفية .. وقبل ذلك كان كثير منهم يلبس الصوف اظهارا للزهد والتقشف » .

الدكتور التفتازانى — هنا — يرجع أصل التسمية الى أن الكثير منهم كان يلبس الصوف اظهارا منهم للزهد والتقشف .. ولكن القشيرى — كما تقدم — مع اقراره بهـذا الوجه ينفى عن القوم اختصاصهم بلبس الصوف ..

ثم يقول الدكتور التفتازانى : « وقيل : سموا صوفية نسبة الى « الصفاء » .. حتى أن أبا الفتح البستى يقول : تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا فيه .. وظنوه مشتقا من الصوف ، ولست أنحل هذا الاسم غير : فتى صافى فصوفى ؛ حتى لقب الصوفى ..

وقال البعض : انهم نسبة الى أهل الصفة من الصحابة رضوان الله عليهم .. ولكن النسبة الى أهل الصفة : صفى ..

ثم نجد كثيرا من أوائل الصوفية لم يعودوا يربطون بين لبس الصوف وبين التصوف من حيث هو خلق وسلوك .. وقالوا ان لبس الصوف قد يكون لباس شهرة ، ولباس الشهرة منهى عنه » ..

نرى الدكتور التفتازانى هنا .. يتفق مع القشيرى فى نفى نسبة الصوفية الى أهل الصفة .. وان كان يميل الى قول « البستى » بأنه مشتق من الصفاء ..

ويختتم الدكتور كلمته بقوله : « هكذا كان الأوائل .. اذن التسمية حادثة ، ولكن مضمون التصوف مردود الى شواهد من القرآن والسنة ، وحياة النبى ﷺ ، وحياة أصحابه رضوان الله عليهم » ..

● بينما يرى الدكتور ابراهيم هلال : أن كلمة صوفى بمعناها عند صوفية المسلمين .. هى نفس كلمة « ثيوصوفيا » اليونانية .. التى كانت تطلق عند قدماء اليونان على مذهب روحى يعتنقه النساك والزهاد السابقون قبل الاسلام بعدة قرون .

ويدلل بهذا الرأى على أن التصوف فى الاسلام .. هو استيراد من خارج الاسلام وليس من صميمه .. مستندا فى تدليله بما ورد فى دائرة المعارف البريطانية من أن « الثيوصوفيين » كانوا معروفين فى أزمان بعيدة .. وكانوا يزهدون فى الدنيا وينقطعون الى النسك والعبادة ، واستنزال الحكمة الالهية على قلوبهم .. وأن هذه الكلمة مركبة من لفظين تركيبا مزجيا .. وهما لفظ « ثيو » ومعناه : « اله » ، و « صوفيا » ومعناه : « الحكمة » ..

أى أن أولئك القوم كانوا بزهدهم وعبادتهم يتطلعون الى اكتساب الحكمة الربانية من الله رأسا .. فهناك تشابه كبير بينهم وبين المتصوفة من حيث اتحاد الواسطة والغاية (٣) .

* * *

● **مفهوم التصوف عند الصوفية :**

التصوف فى عمومه — كما يراه الصوفية — : « هو السير فى طريق الزهد .. والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها .. وأخذ النفس بأسلوب من التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهر .. فى صلاة أو تلاوة حتى يضعف فى الانسان الجانب الجسدى ، ويقوى فيه الجانب النفسى أو الروحى ..

فهو اخضاع الجسد للنفس بهذا الطريق المتقدم .. سعيا الى تحقيق الكمال الأخلاقى للنفس .. والى معرفة الذات الالهية وكمالاتها .. وهو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة »(٤) .

---

(٣) التصوف الاسلامى بين الدين والفلسفة للدكتور ابراهيم هلال ، نشر مكتبة النهضة العربية ، ١٩٧٥ ، ص ٣٠ وما بعدها ..

(٤) المرجع السابق ص ١ وما بعدها ..

وقيل : « ان مفهوم التصوف عند الصوفيين هو : « ارسال النفس مع الله على ما يريده الله » ..

وقيل : هو مناجاة القلب ومحادثة الروح .. وفى هذه المناجاة طهرة لمن شاء أن يتطهر .. وصفاء لمن أراد التبرؤ من الرجس والدنس .. وفى تلك المحادثة عروج الى سماء النور والملائكة .. وصعود الى عالم الفيض والالهام ..

وما هـذا الحديث والنجوى .. الا ضرب من التأمل النظرى ، والتدبر فى ملكوت السموات والأرض .. بيد أن الجسـم والنفس متلازمان ، وتوأمان لا ينفصلان .. ولا سبيل الى تهذيب أحدهما بدون الآخر .. فمن شاء لنفسه صـفاء ورفعة .. فلابد له أن يتبرأ عن الشهوات وملذات البدن .. فالتصوف اذن — فى مفهومهم — فكر وعمل ، ودراسة وسلوك »[٥] .

ويقول الامام القشيرى : « الصفاء محمود بكل لسان .. ضده الكدورة ، وهى مذمومة » ..

كما يقول : « جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه .. وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم .. وجعل قلوبهم معادن أسراره ، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره ..

فهم الغياث للخلق .. والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق بالحق .. صفاهم من كدورات البشرية .. ورقاهم الى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية .. ووفقهم للقيام بآداب العبودية .. وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية ..

فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف .. وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف .. ثم رجعوا الى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ، ونعت الانكسار .. ولم يتكلوا على ما حصل

---

(٥) التفسير والمفسرون ، للدكتور محمد حسين الذهبى — نشر مكتبة وهبة — ١٩٨٥ ، ج ٢ ص ٣٢٤

منهم من الأعمال ، أو صفا لهم من الأحوال .. علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ، ويختار ما يشـــاء من العبيد .. لا يحكم عليه خلق ، ولا يتوجه عليه لمخلوق حق .. ثوابه ابتداء فضل ، وعذابه حكم بعدل .. وأمره قضاء فصل »[٦] .

والامام القشيرى .. من أئمة الصوفية المعتدلين .. ولهذا نراه ينقل عن أقطاب الصوفية آراءهم للتعريف بمعنى الصوفية .. فينقل عن أبى محمد الحريرى قوله : « التصوف : هو الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى » ..

وقول الجنيد : هو أن يمنعك الحق عنك ويحييك به ..

وسئل الحسين بن منصور الحلاج عن الصوفى فقال : وحدانى الذات .. لا يقبله أحد ولا يقبل أحدا ..

ويقول أبو حمزة البغدادى : علامة الصوفى الصادق : أن يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد العز ، ويخفى بعد الشهرة .. وعلامة الصوفى الكاذب : أن يستغنى بعد الفقر ، ويعز بعد الذل ، ويشتهر بعد الخفاء ..

وعندما سئل عمر بن عثمان المكى عن التصوف . قال : أن يكون العبد فى كل وقت بما هو أولى به فى الوقت ..

ويقول محمد بن على القصاب : التصوف أخلاق كريمة ، ظهرت فى زمان كريم ، من رجل كريم مع قوم كرام ..

وســـئل سمنون عن التصوف فقـــال : أن لا تملك شـــيئا ولا يملكك شىء ..

ويقول الجنيد : هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة ..

ويقول رويم بن أحمد البغدادى : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والايثار .. وترك التعرض والاختيار ..

---

(٦) الرسالة القشيرية — مرجع سابق ، ص ٢

وسئل عن التصوف فقال : هـو استرسال النفس مع الله على ما يريد ..

كما يقول معروف الكرخى : هو الأخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الخلائق »[٧] .

* * *

ويعتقد الصوفيون أن مضمون التصوف مردود الى شواهد من القرآن والسنة .. وحياة النبى ﷺ ، وحياة أصحابه رضوان الله عليهم ..

وشواهد القرآن عندهم .. تنحصر فى قصة الخضر مع كليم الله موسى عليهما السلام .. ويعتقدون أن الخضر كان ولياً آتاه الله علما من لدنه .. ويستدلون بذلك على أن الولى أعلم من النبى .. مادام موسى عليه السلام — وهو نبى — يذهب الى الخضر ليتعلم منه .. وقد تعلم منه بالفعل علما كان يجهله !!

ويدلل ابن كثير على نبوة الخضر عليه السلام بقول الله تعالى : « **رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى** »[٨] .. ففى هذا الدليل على أنه كان نبيا ، وأنه ما فعل شيئا من تلقاء نفسه .. بل بأمر ربه فهو نبى .. وقيل رسول ..

يقول ابن كثير : « دل سياق القصة على نبوته من وجوه :

أحدها قوله تعـالى : « **فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما** »[٩] وفى هذا دليل على نبوته ..

الثانى قول موسى : « **هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا** »[١٠] .

---

(٧) الرسالة القشيرية — مرجع سابق ، ص ١٢٦ ، ١٢٧

(٨) الكهف : ٨٢ (٩) الكهف : ٦٥

(١٠) الكهف : ٦٦ — ٧٠

فلو كان وليا وليس بنبى لم يخاطبه بهذه المخاطبة .. ولم يرد على موسى هذا الرد ..

بل موسى انما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذى اختصه الله به دونه .. فلو كان غير نبى لم يكن معصوما .. ولم تكن لموسى — وهو نبى عظيم ورسول كريم واجب العصمة — كبير رغبة ولا عظيم طلبة فى علم ولى غير واجب العصمة .. ولما عزم على الذهاب اليه والتفتيش عنه .. ولو أنه أمضى حقبا من الزمان — قيل ثمانين سنة — ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه .. واتبعه فى صورة مستفيد منه ..

فدل ذلك على أنه نبى مثله يوحى اليه كما يوحى اليه .. وقد خص من العلوم اللادنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم .. نبى بنى اسرائيل الكريم .. وقد احتج بهذا المسلك الرمانى على نبوة الخضر عليه السلام ..

الثالث : أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام .. وما ذلك الا للوحى اليه من الملك العلام ..

وهذا دليل على نبوته .. وبرهان ظاهر على عصمته ، لأن الولى لا يجوز له الاقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى فى خاده .. لأن خاطره ليس بواجب العصمة ، اذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق ..

ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذى لم يبلغ الحلم .. علماً منه بأنه اذا بلغ يكفر ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتهما له فيتبعانه عليه .. ففى قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته .. صيانة لأبويه عن الوقوع فى الكفر وعقوبته .. دل ذلك على نبوته وأنه مؤيد من الله بعصمته ..

وقد رأيت — يقول ابن كثير — الشيخ أبا الفرج ابن الجوزى طرق هذا المسلك بعينه فى الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه .. وحكى الاحتجاج عليه الرمانى أيضا ..

الرابع : أنه لما فسر الخضر — عليه السلام — تأويل الأفاعيل

لموسى ووضح له عن حقيقة أمره وجلى .. قال بعد ذلك كله : « **رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى** »[١١] .. يعنى ما فعلته من تلقاء نفسى .. بل أمر أمرت به وأوحى الى فيه .. فدلت هذه الوجوه على نبوته »[١٢] .

لقد دلتنا قصة الخضر عليه السلام كما رواها القرآن الكريم .. على أن الله تعالى قد أطلعه على شىء من الغيب .. وما كان الله ليطلع على هذا الغيب الا الرسل عليهم السلام .. يقول تعالى : « **وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء** »[١٣] .

كما يقول جل شأنه : « **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . الا من ارتضى من رسول** »[١٤] .

والخضر عليه السلام كان نبيا ولم يكن وليا .. والاستدلال على أن مضمون التصوف مردود الى هذا الشاهد من القرآن فى غير موضعه .. لأن القاعدة الأصولية تقول : اذا انتفى الدليل انتفى المدلول ، وبطل — بالتالى — المستدل عليه لبطلان المستدل به ..

أما شواهد السنة — كما يرونها — ففى أن الرسول ﷺ دخل مرارا على أهل الصفة ورآهم يتذاكرون العلم ويقرأون القرآن ويذكرون الله فلم ينكر عليهم مقامهم بمسجده وانقطاعهم الى العبادة والزهد فى الدنيا ومتعها .. فهم بذلك يرون أن انشاء الدور التى ينقطع فيها الناس للعبادة ويقوم بشئونهم اخوانهم القادرون من المسلمين ليس جديدا فى الاسلام ..

نقول : جاء فى دائرة المعارف الاسلامية عند التعليق على مادة « تصوف » — بالجزء التاسع طبع دار الشعب — : « أما الصفة التى ينتسب اليها أهل الصفة من أصحاب النبى — ﷺ — فكانت فى مؤخرة

---

(١١) الكهف : ٨٢

(١٢) قصص الأنبياء — لابن كثير ، نشر دار التراث العربى ، ١٩٨١ ، ص ٤٥٢ — ٤٥٣

(١٣) آل عمران : ١٧٩ (١٤) الجن : ٢٦ ، ٢٧

مسجد النبى ﷺ فى شمال المسجد بالمدينة النبوية .. كان يأوى اليها من فقراء المسلمين من ليس له أهل ولا مكان يأوى اليه .. ويكثر المهاجرون الى المدينة من الأغنياء والفقراء ، والأهلية والعذاب .. فكان من لم يتيسر له مكان يأوى اليه ، يأوى الى تلك الصفة التى فى المسجد .. ولم يكن جميع أهل الصفة يجتمعون فى وقت واحد ، بل منهم من يتأهل أو ينتقل الى مكان آخر يتيسر له ، ويجىء ناس بعد ناس .. وكانوا تارة يكثرون وتارة يقلون .. وجملة من أوى الى الصفة من الصحابة مع تفرقهم فقد قيل : كانوا نحو أربعمائة من الصحابة ، وقيل كانوا أكثر من ذلك ..

وكان فقراء المسلمين من أهل الصفة وغيرهم يكتسبون عند امكان الاكتساب الذى لا يصدهم عما هو أوجب الى الله من الكسب .. وأما اذا أحصروا فى سبيل الله عن الكسب فكانوا يقدمون ما هو أقرب الى الله ورسوله .. وكان يبعث اليهم النبى ﷺ بما يكون عنده ، وان الغالب عليهم كان الحاجة ، لا يقوم ما يقدرون عليه من الكسب بما يحتاجون اليه من الرزق » ا هـ .

أهل الصفة — اذن — هم نفر من الفقراء والمساكين الذين هاجروا الى المدينة ، ولم يجدوا لهم مأوى الا فى جانب من مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام .. ويعيشون على الصدقات التى كانت ترد الى الرسول فيبعث بها اليهم ..

ويصف أبو هريرة حالهم فيقول : « كنت فى سبعين رجلا من أهل الصفة .. ما منهم رجل عليه رداء ، اما بردة أو كساء قد ربطوها فى أعناقهم »[١٥] .

وقد كان أبو هريرة رضى الله عنه أحد أعلام أولئك الفقراء من أهل الصفة .. وكان يصبر على الجوع الشديد حتى انه كان يلصق بطنه بالحصى من الجوع .. يطوى نهاره وليله من غير أن يجد ما يقيم

(١٥) حلية الأولياء ، لأبى نعيم الأصبهانى ، ص ٣٧٧

صلبه .. ويروى عن نفسه فيقول : « انى كنت ألزم رسول الله ﷺ بشبع بطنى ، حتى لا آكل الخمير ، ولا ألبس الجديد .. ولا يخدمنى فلان وفلانة ، وان كنت لأستقرىء الرجل الآية من كتاب الله هى معى ، كى ينقلب بى فيطعمنى »(١٦) .

هؤلاء هم أهل الصفة .. وهذا كان حالهم .. فاذا كان هذا هو شاهد السنة فى رأى من يقول بأن التصوف منسوب الى أهل الصفة بالرغم من مخالفة هذا الرأى للقياس الصرفى .. فقد كفانا الامام القشيرى والدكتور التفتازانى مشقة الرد عليهم حين نفيا نسبة التصوف الى هذه الفئة من الناس التى كانت على عهد الرسول ﷺ ..

ومرة ثانية نقول : اذا انتفى الدليل ، بطل المستدل عليه طبقا للقاعدة المشهورة ..

أما اذا كان المقصود من شواهد القرآن والسنة وحياة الرسول ﷺ وحياة صحابته الكرام .. هو التحلى بالأخلاق الفاضلة .. والزهد والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها ، وأخذ النفس بالتقشف والعبادة والأوراد والجوع والسهر فى الصلاة والتلاوة .. فان فى تعاليم الاسلام وأخلاقه ما يغنينا عن اختراع مسمى جديد ننضوى تحت رايته بدلا من اسم الاسلام الذى ارتضاه الله ورسوله لنا .. وأطلقه علما علينا : **« هو سماكم المسلمين من قبل »**(١٧) .

* * *

● **من مصطلحات الصوفية :**

للصوفية مصطلحات خاصة ، يتداولونها بينهم .. ويعرفها السالكون لطريقهم .. وقد عرض الامام القشيرى هذه المصطلحات وشرحها شرحا وافيا .. فقال : « اعلم أن من المعلوم أن لكل طائفة من

---

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٣٧٩ ، والحبير — بفتح الحاء — من البرد ما كان موشى مخططا .. يقال بردة حبير ، وبرد حبرة بوزن : عنبة ..
(١٧) الحج : ٧٨

العلماء لهم ألفاظ يستعملونها .. انفردوا بها عمن سواهم وتواطأوا عليها لأغراض لهم فيها ، من تقريب الفهم على المخاطبين بها ، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم باطلاقها ..

وهـذه الطائفة يستعملون الفاظاً فيما بينهم .. قصدوا بهـا الكشف عن معانيهم لأنفسهم والاجماع والستر على من باينهم في طريقتهم .. لتكون معانى ألفاظهم مستبهمة على الأجانب .. غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها .. اذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف أو مجلوبة بضرب تصرف .. بل هى معان أودعها الله تعالى قلوب قوم .. واستخلص لحقائقها أسرار قوم ، ونحن نريد بشرح هذه الألفاظ تسهيل الفهم على من يريد الوقوف على معانيهم من سالكى طرقهم ومتبعى سنتهم »[١٨] .

ومن هـذه المصطلحات التى أشار اليها القشيرى : الوقف ، والمقام ، والحال ، والقبض ، والبسط ، والهيبة ، والأنس ، والتواجد ، والوجد ، والوجود ، والجمع ، والفرق ، والفناء ، والبقاء ، والغيبة ، والحضور ، والصحو ، والسكر ، والذوق ، والشرب ، والمحو ، والاثبات ، والستر ، والتجلى ، والمحاضرة ، والمكاشفة ، والمشاهدة ، والمعاينة ، واللوائح ، والطوالع ، واللوامع ، والبواده ، والهجوم ، والتلوين ، والتمكين ، والقرب ، والبعد ، والشريعة ، والحقيقـة ، والطريقة ، والنفس (بفتح الفاء) ، والخواطر ، وعلم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، والوارد ، والشـاهد ، والنفس (باسـكان الفاء) ، والروح ، والسر ... الخ ..

ولهم مقامات هى مدارج أرباب السلوك : كالتوبة ، والمجاهدة ، والخلوة ، والعزلة ، والتقوى ، والورع ، والزهد ، والصمت ، والخوف ، والرجاء ، والحزن ، والجوع ، وترك الشهوة ، والخشوع ، والتواضع ، ومخالفة النفس ... الخ[١٩] ..

---

(١٨) الرسالة القشيرية ، مرجع سابق . ص ٣١

(١٩) المرجع السابق ص ٣١ — ٤٥

ولا يتسع أمامنا المقام للاسترسال فى عرض كافة المصطلحات التى تعارف القوم عليها .. أو نشرح كل منها — حتى لا نثقل على القارىء غير المتخصص — فالمصطلحات كثيرة ، والمقامات عديدة .. ولكل طائفة منهم مصطلحاتها وأحوالها ومقاماتها ..

انما تهدف للاشارة بأن للصوفية مصطلحاتها التى خصت نفسها بها — حتى تكون معانى ألفاظهم مستبهمة على غيرهم — وأن لهذه المصطلحات تفسيرات وتأويلات تختلف عن جميع التفاسير اللغوية المعروفة لهذه الكلمات .. غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع فى غير أهلهـا ..

* * *

ويوضح الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى المقصود من كلمة « طريق » .. فيقول :

« كان الهدف أن يرسم الصوفية طريقا للسلوك يجتذبون به العطاة ويقولون لهم : ان عليكم أن تقبلوا على الطاعة وتسلكوا هذا الطريق » ..

فتصوروا الى الله طريقا بدايته جهاد النفس .. ومراحله عندهم تعرف بالمقامات والأحوال .. ونهايته العرفان بالله .

أما عن جهاد النفس .. فنحن مأمورون بهذا الجهاد لقوله تعالى: **« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وان الله لمع المحسنين »**(٢٠) .

والسبيل .. هو الطريق ..

وكذلك فان كلمة « طريق » استخدمها هؤلاء العلماء من الصوفية بالرجوع الى القرآن الكريم .. وذلك يعنى أن مصدر الكلمة هو القرآن .. لأن كلمة « طريق » أو « طريقة » ذكرت فى القرآن بهذا المعنى .

يقول تعالى : **« وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا »**(٢١) .

---

(٢٠) العنكبوت : ٦٩ (٢١) الجن : ١٦

ويقول : « إذ يقول أمثلهم طريقة »[٢٢] .

ويقول : « مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين »[٢٣] .

ومجاهدة النفس .. تعنى عند الصوفية مراقبة النفس ومحاسبتها على الفعل .. ونحن نحتاج الى هذا المعنى خصوصا فى عصرنا .. ولو أن كل واحد منا حاسب نفسه عما قدم فى يومه لنفسه وللمجتمع .. وحاول أن يصحح أعماله لكان من وراء ذلك خير كثير ..

جهاد النفس — كما يقول الصوفية — يترتب عليه التحقق بالمقامات والأحوال ..

ولكن .. ماذا يعنون بالمقامات ؟ وماذا يعنون بالأحوال ؟

المقام — عندهم — هو الفضيلة الأخلاقية التى يجتهد السالك لطريق الله من أجل تحقيقها : كالتوبة ، والزهد ، والصبر ، والتوكل ، والمحبة لله وللرسول ، وآل بيت رسول الله ﷺ ، وغير ذلك ..

فكل هذه المعانى مستمدة من القرآن الكريم .. ويعمل الانسان الذى يريد التكمل الأخلاقى على تحقيقها فى نفسه وهو ينتقل من مقام الى مقام فى سلوكه .. فاذا رسخت له التوبة ينتقل منها الى الصبر .. ثم الى التوكل .. ثم الى الرضا . وهكذا ..

حتى اذا استوفى هذه المقامات وغيرها .. فانه يصل الى معرفة الله .. أعنى يصل الى معرفة الخالق تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته .. ويرى الحق سبحانه وتعالى متجليا فى هذا الكون بهذه الأسماء والصفات .. وهى معرفة يطمئن لها قلب الانسان »[٢٤] .

ثم يقول فضيلته : « وكل معنى من هذه المعانى التى ذكرتها مستدل عليه بآيات من القرآن الكريم وبأحاديث للرسول ﷺ صحيحة .. حتى أن شيخ الاسلام ابن تيمية (ت ٧٧٨ هـ) — وقد كتب فى التصوف كتابات يجب علينا جميعا أن نقف عندها وأن نتفهمها — كتب رسالة تسمى بـ « التحفة العراقية » ، وكتب رسالة أخرى عنوانها

---

(٢٢) طه : ١٠٤ (٢٣) البقرة : ٩٧

(٢٤) انظر مجلة التصوف الاسلامى — مرجع سبقت الاشارة اليه .

« الصوفية » و « الفقراء » ، ورسالة أخرى عنوانها « رسالة فى أمراض القلوب » .. مبينا أن التصوف هو علاج لأمراض القلوب ..

يقول فى « التحفة العراقية » : ان ما يتحدث عنه هؤلاء الصوفية من ضرورة مجاهدة النفس ، والتحقق بمعانى التوبة والرضا والصبر والتوكل ، وحب رسول الله — ﷺ — وحب أهل بيت رسول الله .. كل أولئك انما يعتبر واجبا على كل مسلم .. وهذا لأنه لا يتصور أبدا أن المسلم يبتعد عن التخلق .. لأن التخلق كما بينا هو أساس العقيدة وأساس الشريعة ..

وخذ أى حكم من أحكام العقيدة والشريعة .. ستتبين أنه بدون الأساس الأخلاقى يصبح صورة لا روح فيها .. وقد قال ابن عطاء الله فى « الحكم » : الأعمال صور قائمة ، وأرواحها وجود سر الاخلاص فيهـا .

وهذا المعنى مستمد من قوله تعالى : **« ألا لله الدين الخالص »**[٢٥]

اذن .. الاخلاص فى الأعمال الدينية ، والاخلاص فى الأعمال — أيا كانت لأننا لا نفرق بين عمل دينى وعمل دنيوى — هو أسـاس التصوف »[٢٦] ..

ويخلص فضيلته الى أن : « التسمية لا شأن لنا بها — وهذا رأى — لأن التسمية مسألة شكلية .. حتى أن ابن تيمية كان يستخدم عدة تسميات .. وكان يستخدم كلمة « التصوف » كما كان يستخدم كلمة أخرى لها دلالة هى « علم السلوك » فى الرسائل والمسائل ..

وكذلك شرح ابن القيم كتاب « منازل السائرين » للامام الهروى الأنصارى الحنبلى .. وكان عنوان الشرح « مدارج السالكين .. بين منازل اياك نعبد واياك نستعين » .. وهو من أجل ما كتب فى التصوف ..

والحقيقة .. أن ابن القيم وأستاذه ابن تيمية من العلماء الذين كانت لهم مع الله أحوال قطعا .. ولا يتصور أن يكون ابن تيمية أو ابن القيم ممن لم يمارس الرياضات الروحية والأخلاقية »[٢٧] ..

---

(٢٥) الزمر : ٣ (٢٦) المرجع السابق .

(٢٧) نفس المرجع .

وأخيرا .. يتساءل فضيلة الدكتور : لماذا الاختلاف بين الطرق ؟ ومتى ظهرت هذه الطرق ؟ .. ثم يجيب على تساؤله فيقول :

« ظهرت الطرق فى العالم الاسلامى ابتداء من القرن الثالث الهجرى .. وأحب أن أقول : ان كلمة « طرق » لا تعنى أكثر من مدارس تعرف بأسماء مؤسسيها .. فنحن أحيانا ننشىء مدرسة وننسبها الى مؤسسها ، وفى دوائر الجامعات مثلا نقول : فلان من الأساتذة ، لأن له منهجاً أو طريقة أو مدرسة فى توجيه الطلاب أو فى البحث العلمى ..

وكذلك كثير من العلماء الصوفية الذين قادوا وأرشدوا تلاميذهم الى كمال العلم والعمل .. نسب تلاميذهم اليهم .. فعرفت مدارسهم أو طرقهم بهذه الأسماء المميزة .. فمثلا الخراز (ت ٢٧٩ هـ) من كبار أوائل الصوفية ، عرف تلاميذه بالخرازية .. وعرف أتباع الجنيد بالجنيدية .. وهكذا ..

أما الطرق المتأخرة التى ظهرت منذ القرن السادس الهجرى .. ومن أبرزها طريقة عبد القادر الجيلانى (ت ٥٦١ هـ) وكان عالما فاضلا يحترمه ابن تيمية ويذكره كثيرا .. فقد عرف أبناؤه بالقادرية ، وكذلك أحمد الرفاعى (ت ٥٧٠ هـ) عرف أتباعه بالرفاعية .. وهكذا »[٢٨] ..

ويختتم فضيلة الدكتور حديثه بقوله : « فالطريقة الصوفية مدرسة تلتف حول فكر وتوجيه عالم يوجه تلاميذه الى كمال العلم والعمل .. لا أكثر من هذا ولا أقل .. وحين ظهرت الطرق فى أول أمرها كانت بمثابة مدارس للتوجيه الروحى والأخلاقى والسلوكى ، دون أن يكون بين هذه المدارس تعارض — لا فى العقيدة ، ولا فى الشريعة — انما الاختلاف راجع الى طريقة التربية والأخذ بأيدى التلاميذ الى طريق الحق ، والى الكمال الخلقى »[٢٩] .

* * *

لقد تعددت الآراء فى مسألة التصوف ، وسوف تتعدد ..

واختلف الناس فى شأنه ما بين مغال فى تعصبه له ، ومغال فى تعصبه ضده ..

---

(٢٨) المرجع نفسه .

(٢٩) نفس المرجع السابق .

ونقول : اننا لا نعادى الصوفية ولا نحاربها اذا تمسكت بكتاب الله وسنة رسوله ، واذا دعت الى صفاء النفس ونقاء العقيدة ..

اننا لا نعادى الصوفية ولا نحاربها اذا دعت الى التجرد من علائق الدنيا — دون مقاطعتها — وعملت على التفرغ لطلب الآخرة دون القعود عن عمارة الدنيا ..

اننا لا نعادى الصوفية اذا كانت تدعو الى الرهبة من الخالق لا من الخلق .. واذا ما جعلت يقينها أن ما يصيبنا لم يكن ليخطئنا ، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا ..

اننا لا نعادى الصوفية اذا دعت الى ارجاع كل الأمور الى الله تعالى دون خوف من مخلوق لا يملك لنفسه نفعا ولا أذى ..

وأخيرا .. اننا لا نملك معاداة الصوفية أو محاربتها .. اذا كان السالكون طريقها أطهار الذيل ، أعفاء النفوس ، زاهدين فى كل ما فى أيدى الناس ، مطمئنين الى ما عند مسبب الأسباب ..

والصوفية — حين تحرص على التزام هذا النهج — تصبح حقا ذروة الايمان فى التقى والجرأة ، والاقدام والاخلاص ..

وأين هو العاقل الذى يريد لنفسه أن يحارب أو يعادى هـذه المبادىء الفاضلة ؟ !

أما حين تحيد الصوفية عن أمر الله .. وحين تعرض عن كتابه وسنة رسوله فتستورد العقائد الدخيلة على الاسلام كوحدة الوجود .. أو الحلول .. أو الاتحاد !!

أما حين تتمسك بالخرافات والأساطير !!

فاننا لا نملك أبدا مسالمتها أو مهادنتها .. ولا نستطيع أبدا السكوت على انحرافاتها وزيغها .. مهما كان الثمن غاليا !!

ان الحرص على سـلامة العقيدة .. كما أمر بها الله وجاء بها رسوله .. أثمن وأغلى عندنا من كل عاطفة ، ولو كانت عاطفة القرابة أو وشيجة الدم !!

ومجمل القول : اننا لا نعادى الا الخرافة والأسطورة فى الدين .. ولا نحارب الا منازعة الله تعالى فى خصائصه ، واشراك عباده فى صفاته ..

* * *